منطق للوطن وأخلاق للمواطنة

زكريا منشاوي الجالي(*)

تمهيد

نظرًا لاختلاف المفاهيم والمعايير فى عالم اتسم بسرعة التغيير، وكثرة المتغيرات، وذلك مما يمكن ملاحظته واستقراءه على المستوى الدولى، فضلًا عن مسائل التأزم الداخلى فى الدول كافة حتى أكثرها ديمقراطية، إذ لا تسير طبقًا للديمقراطية وقواعدها، والدليل على ذلك عدم استجابة الحكومات الغربية لشعوبها أثناء الحرب على العراق، فعلى كثرة المظاهرات التي ترفض الحرب من الشعوب نجد تمادى الحكومات فى الحرب وهذه مفارقة عجيبة!!.

على ذلك فقد بعدت الأوطان عن المعايير الثابتة، وبذلك بدت المفاهيم أقل منطقية وأقل عقلانية، وإذا ما اعتبرأن العقل هو (أعدل الأشياء قسمة بين الناس) بحسب فيلسوف العقلانية الفرنسية ديكارت R. Descartes (١٥٩٦-١٦٥٠م)، والتى ينبغى أن تعدل الآن إلى أن العقل أعدل الأشياء قسمة بين الناس إذا ما استخدم الاستخدام الصحيح، والعقل هنا هو المنهج وذلك، لأنه شهدت التجربة بأن البشر يتفاوتون فى القدرات العقلية ما بين شديد الذكاء والذكى، والمتوسط والأقل ذكاء، والمنعدم هذا جانب، والجانب الآخر يتمثل فى عدم استعمال العقل إما بسبب المطامع أو بسبب المطامح ـ مما يلاحظ معه انعدام المعيارية وبالتالى انعدام الثبات فى عالم شديد التغير،

(*) مدرس المنطق وفلسفة العلوم، قسم الفلسفة، كلية الآداب ـ جامعه حلوان. مصر.

ولكن إشكالية الموضوع فى التعارض الواضح بين المفاهيم والتصورات للأوطان، فضلًا عن تأزم أخلاق المواطنة على المستوى الدخلى بين الأفراد وتأزمها على المستوى العالمى الإنساني بين الدول، فضلًا عن حالات الترقب للانقضاض ومحاولات التآمر والتطويق مما جعل الإنسان فى حالة صراع فكرى ونفسى واجتماعي كبير، وتتمثل الأزمة على المستوى الواقعى فى انعدام الشعور بالسعادة والرضا فى مختلف دول العالم، سواء الدول المعتدية أو الدول المعتدى عليها، فالكل يعانى، الغالب والمغلوب، الظالم والمظلوم وهذه مفارقة أخرى، وتتبلور هذه الإشكالية فى التساؤلات الآتية.

ما مفهوم الوطن لغويًا كما تبدى فى استعمال الألفاظ لغويًا؟ والألفاظ ثبت استعمالها بالمواضعة والاستقراء. وما المفهوم الإنسانى للوطن والمواطن؟ وما المفهوم الجغرافى للوطن؟ فضلًا عن المفاهيم السياسية و لاقتصادية والبيئية والجغرافية والفلسفية إلخ.....؟ وما الوقع الأخلاقى للمواطنة؟ وهل هذا الواقع يتسم بالقبول ويؤدى إلى سعادة البشر؟ وما البديل؟ إذا كان لا يؤدى إلى سعادة البشر ـ هذه التساؤلات سيتم محاولة الإجابة عليها فيما يلي:

أولًا: مفاهيم حول الوطن والمواطنة

١ - يعرف المفهوم Comprehension منطقيًا بأنه: مجموعة الخصائص الموضحة لمعنى كلى ما، وعلى أساس المفهوم يقوم التعريف والتصنيف، ويطلق على مجموع الصفات المشتركة بين أفراد صنف أو نوع واحد، كما يطلق على مجموع الصفات التي يتكون منها، كما أن المفهوم فلسفيًا عبارة عن معرفة الشئ على وجهه، ومنه مشكلة الفهم understanding التي تعد بوجه عام القدرة على الإدراك والتفكير.[1] في حين أن الماصدق extension /denotation عبارة عن مجموعة الأفراد أو الموضوعات أو الأنواع

(١) المعجم الفلسفى الصادر عن مجمع اللغة العربية، تصدير د. إبراهيم مدكور، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣ م. ص ١٨٩ مادة المفهوم، و ص ١٤١ مادة الفهم.

الداخلة تحت صنف ما أو كلى ما[1]. وبعيدًا عن رصد العلاقة بين المفهوم والماصدق فإننا بصدد بيان مفهوم الوطن والمواطنة كما استقرت فى المعاجم اللغوية، التى تُعد بصورة أو بأخرى مرآة للواقع كما استقر فى الاستعمال، فماذا عساه أن يكون مفهوم الوطن والمواطنة فى الاستعمال اللغوى؟

٢ - مفهوم الوطن والمواطنة فى الاستعمال اللغوى والفلسفى:

تأتى كلمة «وطن بمعنى محل الإنسان، وأوطان الغنم مرابضها، وأوطن الأرض ووطنها واستوطنها واتطنها أى اتخذها وطنًا، وتوطين النفس على الشىء كالتمهيد، والموطن المشهد من تأتى كلمة «وطن» بمعنى محل الإنسان وأوطان الغنم مرابط فيه وأوطن الأرض ووطنها مشاهد الحرب كما فى قوله تعالى ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾[التوبة: ٢٥][2] أى فى مواضع كثيرة، وحول هذا المعنى يأتى معجم آخر ليقرر أن: وطن بالمكان ويطن وطنًا أقام به، وأوطن البلد اتخذه وطنًا، وواطنه على الأمر: وافقه عليه، والقوم عاش معهم فى وطن واحد، ووطن نفسه على الأمر حملها عليه، وتوطن أقام، ويقال توطنت نفسه على الشئ تهيأت له وتمهدت، والأرض وبها اتخذها وطنًا، واستوطن البلد وتوطنه، والموطن كل مكان أقام به الإنسان وجمعها مواطن، والموطن مكان إقامة الإنسان ومقره ولد به أم لم يولد، وجمعه أوطان، ويلاحظ أن هذه المعانى حول المكان والتهيؤ والتمهيد والتوافق، هذا عن المكان، أما عن من يعيش فى المكان فتأتى كلمة الأمة لتعنى جماعة من الناس، والذين يكونون وحدة سياسية، وتجمع بينهم وحده الوطن واللغة والتراث والمشاعر[3] ثم تتأتى هذه الوحدة فى الجنسية التى تعنى الصفة التى تلحق بالشخص من جهة انتسابه لشعب أو أمة، وفى القانون علاقة قانونية

---

(١) نفس المرجع، صـ١٦٤. مادة الماصدق.

(٢) الشيخ الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى، مختار الصحاح،ترتيب محمود خاطر، طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٤م، صـ٧١و صـ٧٢٨ مادة، وطن.

(٣) المعجم الوجيز، الصادرعن القرآن الكريم-سورة التوبة الآية رقم: ٢٥ مجمع اللغة العربية، تصدير: إبراهيم مدكور، القاهرة، ١٩٩٥ م، صـ٦٧٤ مادة: وطن.

تربط فردًا معينًا بدولة معينة، وقد تكون أصيلة أو مكتسبة[1] وهى مشتقة من الجنس الذى يعنى الأصل، والذى يعنى واحد فى كثيرين، كما يعنى التشابة والاتحاد، فتجانس الشيئان أى اتحدا فى الجنس،[2] هذه مقاربة أولية للمصطلحات فى بعض المعاجم العربية على سبيل المثال، وتأتى المعاجم الأجنبية لتؤكد هذا، إذ أن فى منطلق اللغات حدًا ما مشترك، على الرغم من اختلاف الألسن، فكلمة Nation تعنى مجموعة كبيرة من الناس تعيش فى منطقة واحدة ولديها حكومة معتمدة[3]، وكذلك كلمة Country فهى تعنى أمة أو دولة بأرضها و شعبها، وتأتى كلمة National لتعنى ما هو قومى، وInternational لتعنى ما هو دولي أو ما بين الأمم، وتأتى كلمة Nationalism لتعنى الوطنية[4] التى تعنى بدورها الحب العظيم، و فخر يتبدى بواسطة الناس لأنهم يعيشون فى وطن ما، مما يترتب عليه الـ nationality وهى الجنسية التى تعد رابطة بين الناس فى دولة ما[5].

ويعد أحد هؤلاء هو المواطن Citizen الذى يعنى الشخص الذى يعيش فى أحد أجزاء المدينة أو الدولة وله مجموعة حقوق Rights وعليه مجموعة واجبات Duties، ويسمى العلم الاجتماعى الذى يتعامل معها بـ Civic أى المدنى[6]، وهذا ما قصده أرسطو Aristotle (٣٨٤+ ٣٢٢ ق.م) عندما قال بأن الإنسان مدني بالطبع ومنها تأتي علاقة المواطنة Citizen–ship ليتأتى من هؤلاء بناء الحضارة Civilization، التى تُعد بمثابة مراحل من النشاط الإنسانى للتنمية البشرية والاجتماعية فى مجالات الآداب

---

(١) وتأتى العديد من المعانى لكلمة الأمة فعلى سبيل المثال تعنى الرجل الجامع لخصال الخير كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٠] وتأتى بمعنى المذهب كما فى قوله تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٢٢] وتأتى بمعنى الحين والمدة مثل قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ﴾ [هود: ٨] لمزيد من التفصيل انظر: المعجم الوجيز، صـ ٢٥

(٢) نفس المرجع صـ ١٢١.

(٣) نفسه صـ ١٢٠.

(4) Longman (louis Alexander& others) Active study Dictionary. A.R.E. 8th. Imprison، 1987، P. 398.

(5) Ibid. Pag 140.

(6) Ibid. P.398.

والفنون والدين والعلوم ونظم الحكم وقد يكون لها لغة مكتوبة[1] ومن خلال هذا العرض المعجمى لمدلول كلمة الوطن والمواطن وما يرتبط بهما من كلمات، يتضح أن المعنى عبارة عن أرض وبشر وعلاقة بينهما، ذات روابط قد تكون متعددة، ولا يوجد مانع عقلي يحول دون المواطنة العالمية ذات الروابط الإنسانية، إذا ما ارتقت وصفت الأفكار وخلت من المطامع والمطامح معًا، وهنا لابد أن نسجل تشابه المنطقات اللغوية فى سائر اللغات، وما الخطأ إلا فى مطامع البشر هذه واحدة، والثانية على المستوى الفلسفي، أي ما هو عقلي وما هو كلي وما هو مشترك، إذ تعنى كلمة أمة Nation جملة الأفراد الذين يكونون وحدة سياسة، وتجمع بينهم وحدة الوطن والتراث والمشاعر من آلام وآمال[2]، ومن ثم فهى رابطة بشرية تشكل وحدة سياسية ورابطة وجدانية تجمعها آلام وآمال متمثلة فى مشاعر.

٣- مفهوم الوطن والمواطن فى المنطق والعلم: لبيان ذلك يمكن مقاربة هذه المفاهيم كما يلى:

١ - الوطن بوصفه مكان:

يعد الوطن الذى هو عبارة عن مكان Plaee يرتبط به البشر ارتباطًا عقليًا ووجدانيًا، ويأتي المكان كمقولة category من مقولات Categories أرسطو Aristotle[3] (+ ٣٢٢ ق. م) والتى هى عبارة عن الجوهر substance وأعراضه التسعة وهى: الكمQuantity، والكيف quality، والمكان Place، والزمان time، والإضافة Relation، والوضع Position، وله state، ويفعل Action، وينفعل effection. والمقولات هذه هي عبارة عن الأجناس العليا للوجود، ولا يوجد ما هو أعم منها، وهى ذات خصائص، ومنها أن كل منها ذات حيثية، فمتى ذكر

---

(1) Ibid. P. 102.

(٢) المعجم الفلسفى،الصادر عن مجمع اللغة العربية صـ ٢٣ مادة أمة.

(3) Aristotle. Categoria. Eng. Trans. by E. M. Edghll In the works of Aristotle. under the editor Ship of w. D Ross vol 1. The oreganon، oxford، Univesty Press London، 1950, ch 4، 1 P & 2 a.

أى منها ذكرت منفردة، ولا تقبل الإيجاب والسلب، ولا الصدق والكذب، وهى متناهية إذ تقبل القطع الذهني والتحديد لأى منها، وتعد المقولات بمثابة امتداد المنطق الثبات الذى بدأه بارمنيدس Parmenides (٥٣٩ - ٤٧٤ ق. م) فى مقابل منطق الحركة كما بدأ عند هيرقليطس Heraclites (٥٤٠-٤٧٥ ق.م)، والمقولات تعبر عن الوجود فهى طبيعية ومنطقية ولغوية وميتافيزيقية وتعد بمثابة مدخل للكثير من العلوم[١]. وترصد يمنى الخولى (١٩٩٩م) مدى تعبير المقولات (الجوهر وأعراضه) عن واحدية الكون، بمعنى أنه حقيقة واحدة لا كثرة فيها أى جوهر كلى، وما نراه من اختلافات، ليس إلا صفات تُحمل على الجوهر، ومن ثم كان المنطق الأرسطى منطق للحمل ولم يتغير عبر العصور الوسطى[٢] والحديثة إلا مع ديكارت الذى نقل الفلسفة من محور الوجود Ontology إلى محور المعرفة Epistemology، ومن ثم مهد لنشأة العلم الحديث والمنطق الحديث، ونشأة أبحاث جديدة فى المنطق الرياضى، كنظرية العلاقات، مما عمل على تطوير العديد من العلوم، وإمكانية التعبير عن التعددية، واستبدلت مقولة الجوهر كمقولة أولى، وانتظم بفضلها الوجود على هيئة كوزموس Cosmos أى الكون، ذلك الذى تتعامل معه الفيزياء الحديثة، و هو عبارة عن المادة التى تتحرك عبر المكان خلال الزمان، هذا بخلاف أن المعرفة لا تتم إلا فى زمان ومكان[٣]، وعلى الرغم من ذلك إلا أن سائر المقولات مثل الإضافة والفعل والانفعال والوضع لهى مؤثرة فى صياغة ما نعبر به عن الكون فى عصرنا الحاضر، وعلى أى حال فإن المكان والزمان لهما أهميتهما، سواء فى الوجود أو المعرفة، أو

---

(١) زكريا الجالي، الاتجاهات النقدية للمنطق الأرسطى وأهميتها، أطروحة. دكتوراة، بكلية الآداب جامعة، أسيوط، مصر ٢٠٠١ م، صـ ٥ وما بعدها.

(٢) يمني طريف الخولي، «الزمان فى الفلسفة والعلم»، الهيئة المصرية العامة للكتاب «القاهرة» ١٩٩٩م ، صـ١٣.

(٣) لمزيد من التفصيل حول أهمية الزمان والمكان قديمًا وحديثًا فى الأطر المعرفية انظر: نفس المرجع، صـ١٤ وما بعدها.

كفكرة للوطن، وخصوصًا المكان الذى يُعد بمثابة محل للمواطن، ويمكن أن تشكل مقولات الوضع والفعل والانفعال والإضافة كمحور لفكرة العلاقات، وتعد أركان هامة فى فكرة الوطن، وكذلك فكرة المواطن، وفكرة المواطنة أيضًا، وإلا بماذا نفسر الارتباط الكائن بين الإنسان ومكان الميلاد؟ ولماذا كان يدافع العربى القديم عن مكان القبيلة ضد المغيرين عليها؟ وكيف نفسر حرص البعض على تقدم بلادة والعمل على رقيها؟ ولماذا تغنى الشعراء بالأماكن التى نشأوا فيها؟ الأمر يتعلق برابط ما بين البشر والمكان هو الوطن، الذى به عرفت فكرة المواطنة، وفكرة الخروج عنها، وفكرة الخيانة للوطن وللمواطنين، وهى من الأفكار الهابطة خلقيًا وإنسانيًا فضلًا عن عدم منطقيتها.

٣ / ج- الوطن والعلم:

- نشأ العلم أول ما نشأ فى أحضان الملاحظة والتجربة، ولا بد للعلم أن يكون علمًا بموضوع ما، ومن ثم نشأ ما يعرف بالفرق بين الذات العارفة والموضوع المعروف، وتعددت الذوات والموضوعات، واكتشف أبو علم وفن الطب أبقراط Hippocrates (حوالي ٤٦٠ - ٣٨٠ ق. م) والذى عرف الطب بأنه «حفظ الصحة بما يوافق الأصحاء ودفع المرض بما يضاده»، وقد قال بأن «العليل يُداوى بعقاقير أرضه، لأن الطبيعة متطلعة إلى هوائها ونازعة إلى غذائها»[1] ولست فى حاجة إلى التأكيد بمدى الارتباط بين الأرض والبشر عند أبقراط، وهذا جانب طبيعى فى حياة الناس يؤكد على شدة

(١) عبد المنعم الحفنى، موسوعة الفلسفة والفلاسفة، جـ١، ط٢، مكتبة مدبولى، القاهرة،١٩٩٩، صـ ٧٨ مادة أبقراط. وأبقراط طبيب تجريبى وظل المرجع المعتمد فى الطب حتى القرن التاسع عشر الميلادى، وذكره أفلاطون و أرسطو وجالينوس، وهو صاحب أول عهد أخلاقى فى الطب مازال معمولًا به إلى اليوم، وله مجموعة مؤلفات تعرف باسم Corpus Hippcraticum وعنده من مسببات المرض «الهواء الفاسد والطعام غير المهضوم»، وطالب بالاستهانه بالموت، لأن مرارته فى الخوف منه، كما أنه أدرك عملية تعدد العناصر فيقول: لو خلق الإنسان من طبيعة واحدة لما مرض، لأنه لم يكن هناك شىء يضاده فيمرض.
نفس المرجع، ص ٧٨. وكذلك د. أيمن الحسينى: أعظم ٥٥ اكتشاف طبى، مكتبة ابن سينا للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢، صـ١٦.

الارتباط بين الأرض والهواء والغذاء والناس، وهذا قد يعنى ضمن ما يعنى معنى ما من معاني الوطن والمواطن، والارتباط الطبيعى بينهما، أما العلم بإطلاق فأنه لا وطن له، فهو ملك للبشر جميعًا، وأحسب أن مشاكل العالم تحدث عندما يحدث احتكار للعلم، واستخدامه لخدمة الأيدلوجيات، كما هو الآن، وهذا ينقلنا للحديث عما يلي:

مفهوم الوطن والمواطنة فى الفكر الجغرافي والبيئي والفلسفى:

تعرف البيئة Ecology بمعناها الواسع بأنها الوسط الذي يعيش فيه الإنسان وتوجد به مقومات استمرار حياته من مأكل ومشرب ومأوى[1]. وتضم البيئة مكونين أساسيين هما:

الأول البيئة الطبيعية Physical Environment وهى التى لم يتدخل فيها الإنسان، وتضم مكونات وموارد لا يستطيع الإنسان أن يجدد فيها. والثانى البيئة المصنوعة وهى التى أقامها الإنسان في تنظيمه للأرض التي يعيش عليها، وتتمثل فى الدول والمدن والقرى والمزارع والمصانع والطرق الخ، ومن ثم فإن الأرض أو الكوكب الذى نعيش عليه يمثل المجال البيئى ويتضمن العديد من العناصر[2].

وإذا ما كانت أحد تعريفات الجغرافيا ـ وهى عديدة ـ أنها علم العلاقات بين الإنسان ومكونات بيئته الطبيعة على أساس أنه يؤثر فى بيئته ويتأثر بها، فقد بدا الجدل مُحتدمًا حول

---

(١) حول البيئة وتعريفها وأهميتها و مخاطرتلوثها و طرق الحفاظ عليها انظر:
إيان. جـ. سيموتز، البيئة والإنسان عبر العصور، ترجمة السيد محمد عثمان، عالم المعرفة، الكويت، رقم ٢٢٢، ١٩٩٧ م. وأيضًا: رجب محمد السيد، مسائل بيئية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤.
وكذلك د. أحمد مدحت سلام، التلوث مشكلة العصر، عالم المعرفة، الكويت، رقم ١٥٢، ١٩٩٠م.
قارن: أحمد على إسماعيل، البيئة المصرية، دار الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، صـ١٠.

(٢) نفس المرجع، صـ ١٢.
يعنى مصطلح والأيكولوجيا Ecology دراسة العلاقات بين النبات والحيوان بعضها البعض وعناصر البيئة غير الحية والمصطلح ظهر الأول مرة فى عام ١٨٦٣م فى اللغة الألمانية، ثم استخدم فى اللغة الإنجليزية منذ عام ١٨٦٦م فى المؤتمر الدولى للنبات، ثم استحوذ مفهوم البيئة على اهتمامات القرن العشرين، وأصبح الآن فى القرن الواحد والعشرين من الموضوعات الهامة التى تتعلق بمصير الإنسان فى هذا الكون.

مدى التأثير والتأثر بين الإنسان وبيئته، ولذلك ظهرت مدرستان فى الجغرفيا،الأولى هى مدرسة الحتم الجغرافى أو الحتم البيئى Environment determinism[1] وترى أن الإنسان خاضع لعناصر البيئة الطبيعية، وهى إذ تضع الصعاب تهمس له بالحلول، وهو بتكوينه العضلى والنفسى والاجتماعي والثقافي من نتائج بيئته.

والمدرسة الثانية هى مدرسة الإمكان أو الاحتمالية Possibilism وتؤكد على حرية الإنسان وعدم خضوعه كليةً لبيئته، إذ أن إمكانية التعديل للبيئة ممكنًا، وليس التطور الحضارى إلا ناتجًا عن هذه الإمكانية[2] وأى ما كان الأمر فالموضوع يشتمل العنصرين معًا، إذ تشهد الموضوعية الكونية للأماكن والاستقرار لها، أن البيئات تختلف من مكان إلى آخر، وتأتى نظرية الجهة Modality فى المنطق بعناصرها الثلاثة الضرورى Necessary، والممكن Possible، والمستحيل Impossible كتصوير دقيق للطبيعة، كما هو تصوير لقضايا المنطق، فالجهة هى حكم على الحكم لبيان درجه اليقين[3]، وفى الطبيعة يوجد ما هو ممكن الاستخدام كالأراضي السهلية، وما هو ممكن الاستخدام إذا ما تم التدخل فيها لتعديلها، كالجبال القابلة للزراعة، ومنه ما هو ممتنع كالجبال الصخرية وغيرها.

وعلى ذلك فبيئة الإنسان هى مكانه، وهى وطنه الذى كان يلبى احتياجاته المعيشية والأمنية، قبل أن تكون هناك دولًا وجنسيات وحدود جغرافية وسياسية وحكامًا ونظمًا للحكم، وينبغي أن تكون كذلك بعد استحداث هذه المستحدثات، ولعل هذا

---

(١) نفس المرجع صـ ١١ .

(2) Aristotel: Anlytica priora، Eng. trans،. by A. G. genkimson.، in the works Of Aristotle، under the editor ship of sir w. d. Ross, vol. 1, exford، uni. Press, London, 1950 B1. ch2. 25a – 40

وكذلك Aristotel: De. Inter.ch12. 21 a:

(٣) محمد حسين هيكل. جان جاك روسو حياتة وكتبه، دار المعارف، طـ٣، القاهرة، ١٩٧٨، صـ ٧٥.
وجان جاك روسو يُعد من أوائل المنادين بالحرية والعدالة والمساواة فى العصر الحديث بحثًا عن حالة السعادة الأولى للبشرية، والذى يعتبر، أن المدنية أفسدتها، وتعد كتاباته من الأفكار الأساسية للثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات، وهو صاحب نظرية العقد الاجتماعي Social Contract وعن الحالة الطبيعية الأولى وحول نفس الفكرة قارن: وائل غالى، أوهام المستقبل، دار الثقافة، القاهرة ١٩٩٨ م، صـ ٢١ .

ما أعاد اكتشافه جان جاك روسو Rousseau f.f (١٧١٢ - ١٧٧٨م) ونادى به خلال أعماله الهامة، والتى تُعد فلسفة متكاملة للحرية والعدالة والمساواة[١]، فضلاً عن إعادة تأسيسه فى الغرب لنظرية العقد الاجتماعي Social contract، وقد سبقه الفيلسوف الصينى كونفشيوس (٥٥١ - ٤٤٩ ق.م) والذي قرر أن الحاكم مفوض من الله على الأرض، ليحكم وفقًا لعقد يحدد نصوص هذا التفويض، والطاعة واجبة للحاكم طالمًا احترم نصوص هذا العقد، وإلا فالأفراد لهم الحق فى الثورة ضده، إذا ما حاد عن هذه النصوص كما نجد أتباع «موتسو» Motzu (٨٦٤-٦٧٣ ق.م) فى الصين يعتقدون هذه الفكرة، وعلى هذا النحو تحدث السوفسطائيون فى بنائهم للدولة على نظام تعاقدي في ما يذكر أفلاطون Plato فى (٤٢٨-٣٣٨ق.م) كتابه الجمهورية (repoplicd)، وقد ذهب مذهبهم الكثير من الأبيقوريين، وكذلك سنيكا (٣ق. م - ٦٥ م) واستمرت الفكرة فى العصر الروماني، والعصور الوسطى حتى ازدهرت فى القرن السابع عشر على يد توماس هوبز(Hoppse - T +٦٧٩) وسبينوزا (Spınoza +١٦٧٧ م) وجون لوك (J.look+١٧٠٤م)، على اختلاف فى النتائج المترتبة عن أفكارهم بشأن الاقتراب والابتعاد من وعن الحرية للحاكم والمحكومين معا[٢].

٣ جـ/ الوطن والبيئة:

لقد ارتبط الوطن أو المواطن بالبيئة، فإذا كان هناك عناصر طبيعية يتشكل منها هذا الوطن أو ذاكَ، وعلى الرغم من التشابه أو الاختلاف بين مايسمى بالأوطان أو البيئات على مختلف أنواعها، فالأمر يتعلق بالمكان المهيأ أو القابل لأن يتهيأ لمعيشة الإنسان[٣]، ليزول الاختلاف وتبقى إمكانية أن يحيى الإنسان فى وطن عالمى مسالمًا لبنى جنسه، ويمكن أن يكون الوطن عبارة عن مكان للبشر وتفاعلهم ليتأثر كل منهم بالآخر،

---

(١) حسن سعفان: العقد الاجتماعي لجان جاك روسو، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، صـ ٧١ وما بعدها.

(٢) إيانج. سيمونز، البيئة والإنسان عبر العصور، ترجمة السيد محمد عثمان،عالم المعرفة - الكويت ١٩٩٧، صـ ١٥.

(3) cit, p 102. louis Alexandre & other, op.

ويمكن أن يكون الوطن هو مكان الميلاد والمنشأ لثلاثة أجيال متعاقبة على التوالى، وعندئذ، يكون هو المستوطن الذى يصبح وطنًا، كما يمكن أن يكون الوطن مختارًا من قبل فرد ما أو جماعة ما، لكن ما يمكن أن يكون هو أن العالم على اتساعه ينبغى أن يكون وطنًا لبنى الإنسان، ليصبح عدو الإنسان الحقيقى هو الفقر والجهل والمرض، وتكون حرب الإنسان فى سيطرته على الطبيعة بحسب تعبير فرانسيس بيكون (F.Bacon + ١٦٢٦م) وعلى ذلك أستطيع أن أقرر أن الوطن هو المكان والبشر الذى يرتبط بهما الإنسان بروابط متعددة قوامها الألفة والسعادة، يكون فيها الإنسان يألف ويؤلف، وله كافة الحقوق التى للإنسان، وعليه كافة الواجبات التى لكل مواطن، بما يتحقق معه العدالة والحرية والمساواة، وبذلك يكون مواطن Citizen، ذلك الذى يعيش في المكان المعين، له حق التصويت وحقوق أخرى فى هذا المكان، بما يمكنه ليكون عضوًا فى دولته بالميلاد أى بصورة رسمية بما يسمح له بأن يكتسب هذه الحقوق[1]، لتجعله تحت حماية هذه الدولة، وقد يكون مواطنًا لدولة. لكنه يعيش فى دولة أخرى، وبالتالي يستمتع بعلاقة المواطنة Citizenship[2] التى تعنى المساواة فى الحقوق والواجبات، وبالتالى فإن العلاقة بين الوطن والبيئة، عبارة عن المكان الذى يستوعب البشر إنسانيًّا، بكافة احتياجاته المادية والمعنوية، وهى المكان الذى ينبغى الحفاظ عليه بيئيًا وتحسينه لأن هناك رابط ما هو الحب وهو رابط وجداني و مصالح مشتركة وهي رابط عقلي.

منطق للوطن:

- إذا كان المنطق في أحد تعريفاته هو علم معيارى Scince Normative يدرس ما ينبغى أن يكون عليه التفكير السليم، ضمن العلوم المعيارية الثلاثة التى هى المنطق (له

(١) زكريا الجالى: المنطق البراجماتى فى ضوء الثوابت والمتغيرات ـ إشكالية أمريكية شرق أوسطية معاصرة، (ضمن الفلسفة التطبيقية ـ أعمال مؤتمر الفلسفة لخدمة قضايانا القومية في ظل التحديات المعاصرة، المنعقد بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة، إبريل ٢٠٠٤م) تحرير: مصطفى النشار، الدار المصرية السعودية للنشر، القاهرة. ٢٠٠٥، صـ ٨١.

(٢) أحمد مدحت سلام، التلوث مشكلة العصر عالم المعرفة،الكويت، ١٩٩٠م، صـ ٩.

العديد من الأنواع منه القديم بمباحثه، والحديث على تعدد اتجاهاته وموضوعاته)، فضلًا عن الأخلاق والجمال، فماذا عساه أن يكون مفهوم المنطق للوطن؟

- هل هو منطق الثبات بتعريفاته وقضاياه واستدلاله؟
- أم هل هو ما ينبغي أن يحذر منه بتجنب الأغاليط المنطقية في مسائل تخص الوطن؟
- كالسفسطة القديمة والسفسطة المعاصرة؟[1] فى مسألة الوطن، أنحكم العقل بمنطقه الصارم وبحساباته الدقيقة؟ أم الوجدان وقفزاته بحسب تعبير الفلسفات الوجودية و غيرها؟
- ومع منطق العقل هل نحتكم إلى منطق ثابت؟ كما فعل أرسطو ومن تابعه، أم إلى منطق التغير؟ كما فعل السفوسطائيون قديمًا وهيجل (F.Hegel ١٧٧٠/ ١٨٣١م) حديثًا والسفسطة المعاصرة؟[2]
- فى الواقع أننا إذا ما أردنا أن نجيب من هذه التساؤلات، فإن الأمر يتعلق بوطن ما، أى مكان ثابت يعيش فيه بشر متغيرين بتعاقب الأجيال، لكنها أجيال مترابطة، وهذا هو عنصر الثبات فى هؤلاء وأولئك المتغيرين، وعلى ذلك فالوطن الخاص، أو الأوطان الخاصة والوطن العام لجماعة بشرية ما أو العام عمومية مطلقة، إذا ما اتحدت الإنسانية جمعاء (على مستوى المفاهيم والماصادقات) تحتاج إلى ثوابت، إذا ما تأسست بالعدل دون نزاع أو تنازع، فعندئذ تتساوى الأوطان فى المسائل الأساسية كحق الأرض وائتلاف البشر، بما بينهم من روابط فى الماضي والحاضر والمستقبل، بما يمثل أهداف خيّرة وعادلة[3].
- وعلى ذلك فالوطن هو الكفاية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية، والمساواة في

---

(١) زكريا الجالى، منهج البحث النقدي عند كارل بوبر، ضمن فلسفة النقد ونقد الفلسفة فى الفكر العربى والغربى، مركز دراسات الوحدة العربية والجمعية الفلسفية المصرية القاهرة، ٢٠٠٣ م، صـ ١٩٢.

(٢) العلامة الصدر ابن عبد الرحمن الاخضرى، السلم فى علم المنطق تحقيق وتعليق: عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ٢٠٠٠، صـ ٣٤.

(٣) توفيق الطويل، فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩م، صـ ١٩٢.

الحقوق والواجبات، وألا يطغى بنو وطن على وطن آخر على المستوى الخارجى، ولا مواطن على مواطن آخر على المستوى الداخلى.

- والمنطق الذى يكون للوطن من الممكن أن يكون عبارة عن تعريف جامع مانع للوطن، وأي الأسس الجوهرية لمفهوم Concept الوطن، وكيفية استخدام المنطق logic، بالتعريف والاستدلالات والاستقراء، ونتجنب نُغالط أو نغالط فى مسائل تخص الوطن، فكأنه هنا بمثابة سياج، وهذا استخدام للمنطق الأرسطى، فضلا عن بيان القضايا وحسابتها فى مسائل تخص الوطن، وإسقاط منظور العلاقات وحسابتها، فضلًا عن باقى أفرع المنطق الحديث. واستخدام المناهج العلمية للعمل على تقدم الوطن، كالتحليل والتركيب والإحصاءات الدقيقة ومناهج الملاحظة والاستقراء، وتعديل الاستقراء بمنهج التكذيب أو القابلية للتكذيب Falsability [1]، كما بدا عنه كارل بوبر(k. Popper-١٩٠٢-١٩٩٤) عندئذ يكون العالم معقول، أو توجد أرضية مشتركة للتفاهم بين الأوطان فيما بينها، والبشر داخل الوطن الواحد فى ما بين بعضهم البعض، ولعل هذا يعد دعوه للالتقاء على أرضية مشتركة، هى أرضية المنطق، بعيدًا عن المنطق الضبابي والمنطق ثلاثي أو متعدد القيم، فثبات الأوطان يحتاج إلى وضوح وثبات المعايير، لعل هذا ما قصده الأخضـــرى (حوالي عام ٩٤١هـ) فى قوله: وبعد: فالمنطق للجنان نسبته كالنحو للسان[2].

فيعصم الأفكار عن الخطأ وعن دقيق الفهم يكشف الغطا

فالمسألة بالنسبة للوطن مسألة فهم وتفهم يؤدى الى تفاهم، لكن ما الذى يصون مسألة الفهم هذه؟

ربما تكون أشياء كثيرة أهمها هو الأخلاق، وهذا ما سنتناوله فى ما يلى:

---

(1) S.Empiricus: outlines of pyrrhnism Eng. Tr. by R. G. Buny. Vol. B. 1. Cambridge, London, 1955 P. 159.

(٢) توفيق الطويل، المرجع السابق، صـ١٨.

ثانيًا: الأخلاق والوطن

سوف نتحدث عن أخلاق المواطنة بين المنطق والمذهب الأخلاقية، و التساؤل المحورى في هذا الجزء من البحث هل هذا يمكن أن يكون هناك علاقة بين الوطن وفلسفه الأخلاق؟ وإن وجدت فماذا تكون؟ وهل هناك علاقة فى دنيا الواقع بينهما؟ أو هل تتأثر الأوطان أو الوطن بتيارات فلسفة الأخلاق هذا ما سنحاول مقاربته كما يلى:

١- **لابد من الإشارة إلى ارتباط فلسفة الأخلاق بنظرية المعرفة**، Epistemology فإذا ما قيلت أى نظرية من نظريات المعرفة فإنه يمكن أن يقال أى نظرية من نظريات الأخلاق تصدر عنها، فهذا الارتباط يكون ارتبطت النتائج بالمقدمات، فنظريات الأخلاق تعد نتائج لنظريات إبستمولوجية[١]، هذا وقد ارتبط الأخلاق بالمنطق وبالطبيعة قديمًا لدي تيار ورافد هام من روافد المنطق القديم كما بدا ذلك عند المدرسة الرواقية والتى أجمع معظم أعلامها على أن المنطق هو الصوره العقلية للطبيعة، والطبيعة هي محور عمل العقل، والأخلاق ثمرة لهما معًا. لأنها إذا ما نشأت على أسس منطقية كانت معقولة وذات قابلية لتؤدى دورها فى تهذيب السلوك[٢].

وإذا كانت فلسفة الأخلاق تبحث فيما ينبغى أن يكون عليه السلوك الأخلاقي للفرد، فضلًا عن السلوك الأخلاقى لجميع الأفراد، وهذا يعنى أن هناك موضوعات للتفكير والتفلسف الأخلاقى، ومن هذه الموضوعات سلوك الفرد مع نفسه ومع الآخرين، وبمثل ذلك علاقة الأنا بالأنا، والأنا بالآخر، وقد يكون هذا الآخر أفرادًا أو جماعات أو يكون زمان ما أو مكان ما أو ثقافة ما، وقد يكون وطنًا أو أوطان، فضلًا عن أن المنطق المعرفي له أسس، و المنصق يبحث فى الفكر الإنسانى وما ينبغى أن يكون عليه، وفى جانب آخر يبحث فى صورة الفكر نفسه، وعلى ذلك فإنه من

---

(١) نفس المرجع صـ ١٩.

(٢) إمانويل كانط، مشروع للسلام الدائم، ترجمة وتقديم: عثمان أمين، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٠، صـ ٩، من مقدمة المترجم.

المستطاع تقرير هذه العلاقة بين الوطن والأخلاق، فضلًا عن علاقة المنطق بهما لكى نتجنب الأغاليط المنطقية.

٢- الدعوة الأخلاقية قديمة قدم المجتمعات البشرية، فما اختلطت طائفة من الناس فى أى مكان من أماكن الأرض أو فى أى عصر من العصور، إلا وقد نتج عن هذا الاختلاط قواعد للتمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، والجمال والقبح، والكمال والنقص، وعلى ذلك بدأت المعايير فى الظهور وعلى ذالك أصبح هناك قيمة value لكل مسلك من مسالك الناس، ومن ثم أضحت هناك قيم عليا كانت محور التفكير فى المذاهب الخلقية، أما عن مكانتها فذلك كما يلى:

٣- مكانة القيم العليا فى المذاهب الخلقية:

بدا ينتج عن التجمعات البشرية والتى أصبحت مجتمعات، ظهور ما يعرف بالقيم العليا، التى تقضى بتأدية الواجب وقيام المحبة والإخاء، ونشر العدالة، وضمان الحرية وإقرار الأمن والسلام، والالتزام بالعفة والأمانة، والامتناع عن القتل والاغتصاب، والكذب والنفاق، والإفك واهانة الآخرين، والاعتداء بكافة صوره وأشكاله[1]، لكن السؤال الذى يطرح نفسه: هل جاءت مواقف فلاسفة الأخلاق وعلماء الأخلاق واحدة أم متعددة؟ وما موقف كل تيار ومذهب تجاه هذه القيم؟ وهل نالت هذه القيم الموافقة أم المعارضة؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، ولبيان أثار هذه المواقف وتلك الرؤى على منطق الوطن وأخلاق المواطنة، نجد أنه مما لا شك فيه أن أسس الأخلاق ومدارها أن الإنسان كما يُعرف لدى المناطقة بأنه حيوان ناطق، فإنه كذلك حيوان أخلاقى وحيوان عارف، فكونه حيوانًا أخلاقيًا، ذلك لأنه يشارك الحيوان فى الحس فينزع معه إلى إشباع حاجاته العضوية، ومطالبه البيولوجية، لكنه ينفرد دون الحيوان بالتأمل العقلى.

---

(١) تفصيل ذلك انظر: كانط، نفس المصدر، صـ ٢٣، وما بعدها ولقد ظلت المثالية تحقيقا للسعادة من أحلام البشر بدءًا بجمهورية أفلاطون ويوتوبيا توماس مور وقبلها مدينة الفارابى الفاضلة قارن: توماس مور، يوتوبيا، ترجمة د. انجيل بطرس تقديم د. زكى نجيب محمود، مكتبة الأسرة القاهرة، ٢٠٠٠، صـ ١٥، وما بعدها. قارن. د. توفيق الطويل، المرجع السابق، صـ ٢٨، وما بعدها.

والتأمل يُعد أحد المناهج للحصول على المعرفة، فالإنسان يستطيع أن يعتزل واقعه ثم يباشر النظر فيه، ويتعالى عليه فى ضوء مَثَلٍ أعلى يدين له بالولاء، فهو من بين سائر الكائنات الحية يعد الوحيد لامتلاكه لإرادة Will التعبير والتغير عن وعى وتبصر[1]. فإذا ما كانت هذه هى خصائص الإنسان دون غيره من أنواع المملكة الحيوانية، وذلك فى ضوء الأسئلة المطروحة، فما مواقف المذاهب والتيارات الخلقية من مسألة الوطن؟ ذلك يتمثل فيما يلى:

١- موقف المثاليين: idealism من العقليين والحدسيين من المسألة:

يرى هؤلاء أن وظيفة الفلسفة الخلقية، عبارة عن وضع مثل إنسانى أعلى، يسير بمقتضاه السلوك الإنسانى، بما هو إنسانى مجردًا عن عوامل الزمان وعوامل المكان، على أن يكون ملائمًا لأسمى جانب فى الطبائع البشرية، وهو الجانب العاقل المشترك بين كافة البشر، يلتقي على طريقه الناس فى كل زمان ومكان، رغمًا عن الاختلافات بينهم، فى المستويات الحضرية والثقافية، والمعتقدات الدينية، والطبقات الاجتماعية، وغير ذلك مما يفرق الناس طبقات، فالكل ينشد القيم النبيلة، لكن ماذا عسى أن تكون هذه القيم النبيلة تجاه الوطن؟

- لاشك أنها ستكون الحرية والعدالة والمساواة لكل مواطن، سواء على المستوى الداخلى أو الخارجى.

وتكمن هذه الأشياء فى فكرة السلم التى اتجه إليها حكماء العصور الغابرة، وحمل لوائها الفلاسفة الرواقيون منذ القرن الثالث قبل الميلاد، حين أهابوا بالإنسانية أن تحرر نفسها مما يفرق بين الإنسان وأخيه الإنسان من فروق، سواء فى اللغات والأديان والأوطان[2]. وذلك على غير عادة فلاسفة اليونان وقسمتهم للمجتمع إلى سادة وعبيد، فضلًا عن قسمتهم للعالم أنذاك إلى متحضرين وبربر، وقد عملت

(١) توفيق الطويل، المرجع السابق، صـ ٢٩.
(٢) نفس المرجع صـ ٣٠.

الرواقية على نشر قيمة السلام هذه، فنظروا إلى الناس جميعًا وكأنهم أسرة واحدة، قانونها العقل ودستورها الأخلاق، وهكذا دعا الفارابى فيلسوف الإسلام فى القرن العاشر الميلادى فى كتابه: «أراء أهل المدينة الفاضلة». وإهتم الفيلسوف الألمانى إيمانويل كانط (I.kant + ١٨٠٤م) بالفكرة نفسها، فبالإضافة إلى قانون الواجب الأخلاقى، نشر عام ١٧٩٥ م كتابه «مشروع للسلام الدائم» اهتم فيه بضرورة إنشاء حلف بين الشعوب للقضاء على شرور الحروب وويلاتها، وقد اهتم بوضع المبادئ والأسس فى صورة ست مواد أولية تكفل السلم، وهذه المواد يعد جوهرها بمثابة كفالة للمعاهدات السلمية الصحيحة، والاستقلال لكل دولة صغيرة مهما تكن صغيرة أو كبيرة، وضرورة إلغاء الجيوش الدائمة على مر الزمان، والعمل على إلغاء القروض الدولية بهدف التسليح، وعدم التدخل بالقوة فى نظام أى دولة من الدول، وعدم السماح للدول فى أثناء الحروب أن ترتكب أعمالًا عدائية لا أخلاقية، فضلًا عن ضرورة الحكم الدستوري الصحيح فى كل دولة، ويقوم قانون الشعوب على التحالف بين دول حرة[١]، ولا شك أن هذه الأفكار تعمل على صيانة الأوطان داخليًا فى علاقات الأفراد بعضهم البعض، فضلًا عن صيانتها على المستوى الخارجى فى علاقه الدول بعضها البعض، فضلًا عن كون بعض الدول كبيرة والبعض الآخر صغيرة، بعضها قوى والآخر ضعيف، بعضها غنى والآخر فقير، لأن هذه المثالية تكفل عدم الاعتداء فى أى وقت من الأوقات، وتعمل على التزاوج بين ما هو سياسي وما هو أخلاقي. فهل هذا الاتجاه لا يكفل لكل البشر السعادة؟

٢- موقف الطبيعيين من أصحاب النزهة الواقعية:

يضم هذا التيار الطبيعيون من أصحاب النزعة الواقعية والنفعيون و التجريبيون و الواقعيون والماركسيون والبراجماتيون والتحليليون التجريبيون أو الوضعية المنطقية وقد جاءت مواقفهم كما يلى:

---

(١) نفس المرجع صـ٣١.

٢-أ موقف أصحاب الفلسفة النفعية من القيم العليا:

هاجم بنتام (J.Bentham +١٨٣٢م) إمام الفلسفة النفعية فى عصره المثاليين، وجعل المنفعة وحدها هى المبدأ الأخلاقى[١]، وبالتأكيد هى المبدأ السياسى أيضا، إذ هاجم كلمة «ينبغى فعل كذا أو عدم فعل كذا» وهو يرى أن الفليسوف المثالى يجلس إلى مقعد مريح يطمأن إليه، ثم يأخذ فى إصدار أحكامًا قاطعة فى كبرياء، عن الواجب كمبدأ إنسانى، إذا يتفق عليه الناس فى كل زمان ومكان!! هذا على الرغم من أن كل إنسان لا يفكر قط إلا فى إشباع مطالبه الشخصية، ورعاية مصالحه الذاتية.

٢/ ب موقف الوضعيين من القيم العليا:

ذهب الوضعيون ورائدهم أوجست كونت إلى (١٧٩٨ -١٨٥٧م) استبعاد كل ما هو مطلق، وقالوا بنسبية القيم فى مجال الأخلاق وغيرها من العلوم المعيارية[٢].

٣/ جـ - موقف الماركسيين من القيم العليا:

ذهب كارل ماركس (١٨٨٣م) ومن تابعه إلى رفض ما ذهب إليه المثاليون من القول بمثل عليا، وقالوا بأن التاريخ يتحكم في سير الأحداث فيه قوانين تتماثل مع القوانين التى تسير الظواهر الطبيعية بمقتضاها، ومن ثم انعدمت مقدرة الأفراد على تغيير مجراه فى ظل ما يسمى وهما بالقيم العليا، فضلًا عن أن القيم لا تعيش بمعزل عن الأحداث المادية، وعلى ذلك فإن ما يسلكه الإنسان فى حياته يكشف عنها طبيعة التطور التاريخى وقوانينه، وقوانين التطور الاجتماعى تؤكد على قيام طبقة ما.

بانتزاع ما تملكه طبقه أخرى وتستعملها لصالحها، وهذه الطبقة الباغية ستنتهى حتمًا إلى أن تتوارى من التاريخ[٣] ومن هنا تكون الحالة مع الماركسين عملية صراع

---

(١) هنرى لوفيفر، المنطق الجدلى، ترجمة إبراهيم فتحى. مكتبة الفكر المعاصر، القاهرة، ١٩٧٨،صـ ٢٦، وكذلك د. زكريا الجالى، الاتجاهات النقدية للمنطق الأرسطى وأهميتها، صـ١٥٠.

(٢) ستيبا نوفا: كارل ماركس، سيرة الحياة، ترجمة اسكندر ياسين، دار التقدم الاتحاد السوفيتى، ١٩٧٩، صـ ٢٧٣.

(3) W.james: Pragmatism Anew name for some ways of old Thinking، 21st. ed. U.S.A.1943. P43

بين الطبقات، وإذكاءً لروح هذا الصراع، مما يعمل على حتمية القول بالصراع الداخلى والخارجى على حد سواء، مما يؤدى إلى كثرة المشاكل بين الأوطان، فضلًا عن المشاكل الداخلية داخل حدود وطن ما من الأوطان.

ولعل هذا ما أبداه هيجل بشأن رؤيته المنطقية، والتى تمثلت فى ثلاثية فكرية، ففى التصورات تظهر فى الجوهر والعلة والتفاعل، وهذا يتوافق مع الفكرة ثم النقيض ثم المركب منهما مما يمثل المنطق الحركى[1] لا منطق الثبات كما بدا عند أرسطو، وقد أذكى ماركس من روح الأممية[2] التى تذكى بدورها روح الصراع. ولا شك أن هذه الرؤى قد شكلت المحورالايديولوجي الاتحاد السوفيتى، الذى عملت القوى المناوئة له على إسقاطه، وقد نجحت فى ذلك فى أواخر القرن العشرين الميلادى

٢/ د موقف أصحاب البراجماتية من القيم العليا:

لقد ذهب البراجماتيون إلى الجانب العملى وتحقيق النفع، ومن ثم انصرفوا عن البحث فى المبادئ الأولى والغايات القصوى كالمثل العليا، إلى البحث فى نتائج الأفكار وأثار المعتقدات، فالفكر لديهم مشروع للعمل وخطة لحل إشكال، أو اقتراح للتخلص من مأذق، وعلى ذلك فالفكرة لا توصف بكونها حق أو باطل لكنها صواب متى حققت منفعة، وخطأ إذا لم تحقق، فهى توصف فقط بأنها مؤدية، أو غير مؤدية. وفى هذا يرى وليم w.james (+ ١٩١٠م) أن الخير أو الحق يُعدان كورقة النقد الذائف، والتى تظل صالحة للاستعمال حتى يثبت زيفها، ومن هنا انتفت لدى البراجماتية وجهة نظر أتباع المذهب الصورى وأصحاب النزعة المنطقية من الرياضيين والمناطقة، فى رؤيتهم للحق بمعناة المطلق المستقل عن تجارب الإنسان، أو أن الحق صفة عينية تقوم فى الموجودات

---

(١) توفيق الطويل، المرجع السابق، صـ ٢٩٥.

(٢) محمد والي، سقوط الأقنعة - المشروع العهنون الأمريكي للسيطرة على العالم - القاهرة،٢٠٠٣م، ص٤٥ وما بعدها. وكذلك: زكريا الجالى، المنطق البراجماتى عند ديوى فى ضوء الثوابت والمتغيرات - إشكالية أمريكية شرق أوسطية معاصرة -، ضمن الفلسفة التطبيقية لخدمة قضايانا القومية فى ظل التحديات المعاصرة، تحرير: مصطفى النشار، الدار المصرية السعودية للنشر، القاهرة ٢٠٠٥.

مستقلة عن وجود عقل يدركها، أو عدم وجوده، والأمر العالمى لن ينصلح ما بقيت نظرة البراجماتية، لأنها لا تعدوا إلا أن تكون سفسطة معاصرة.

كما يحدث الآن «القرن الحادى والعشرين» بشأن احتلال العراق وفلسطين وأفغانستان والمعايير المزدوجة، وانعدام حقوق الإنسان فى ظل المنافع والمصالح، فقد تكون البراجماتية مفيدة في مجالات الحياة غير أنها ليست كذلك في مجال الأخلاق والسياسة الخارجية.

٢/ هـ - موقف أصحاب الفلسفة التحليلية والتجريبية المنطقية من القيم:

يرى أصحاب الفلسفة التحليلية الذين جاء اهتمامهم بتحليل العبارات والقضايا لتوضيح مفهوماتها وإزالة اللبس والغموض عنها، ويذهب فيتجنشتاين (١٨٨٩-١٩٥١م) إلى أنه «ليس فى العالم قيمة « وإذا ما وجدت قيمة كانت غير ذات قيمة» وقد أدى التحليل إلى الإطاحة بالأفكار الميتافيزيقية ومنها الأفكار المعيارية، وأضحت مهمة الفكر هو رسم الواقع بما هو كائن، لا كما ينبغى أن يكون، ولعل هذه الأفكار لا تهتم إلا بالوضوح، ويمكن الأخذ بها فى صياغة القوانين والمعاهدات الدولية والدساتير، بشرط أن تكون إرادة الخير للجميع موجودة.

٢/ و- موقف أصحاب الوضعية المنطقية من القيم العليا:

أما أصحاب الوضعية المنطقية فكما يذهب أحد أعلامها وهو الفريدجيول أير (A.J.Ayer المولود١٩١٠ - ؟).

بشأن مبدأ التحقق والذى يعد معيارًا لصواب الأفكار، أو خطئها فإن قضايا الأخلاق وعبارتها لا توصف لا بالصدق ولا بالكذب، لأنها أوامر فى صيغ مضللة، فضلاً عن أنها تعبر عن انفعالات نفسية، وهى كلام فارغ Non - sense يشبه ثرثرة الطفل التى يعبر بها عن دوافعه ووجدانه، أو هى أشبه بتأوه المتألم.

وربما تكون أفكار الوضعية المنطقية ذات نفع فى المجال المعرفى والمجال المنطقى، لكن الخطورة أن تمتد لتطيح بالثوابت الأخلاقية والسياسية، وأن مكمن الخطورة فى عالمنا المعاصر هو كثرة المشكلات الدولية نظرًا لانعدام المعايير.

٢/ ز - موقف أصحاب الفلسفة الوجودية من القيم العليا:

٣- ذهب أصحاب الفلسفة الوجودية إلى أن حرية الإنسان لا تحد لأنها عبارة عن وجوده، والإنسان يجد نفسه أمام مواقف عليه أن يختار فيما بينها، وعن هذا الاختيار تنشأ مسؤوليته، والاختيار لا يتقيد بفكرة ما سبقته، ولا بقوة عليا وإلا افتقد حريته، ذلك لأن الإنسان الفرد هو صاحب القيم، لأنه صانعها بحريته التى لا ترتد إلى معطيات سابقة، وبهذا تسقط كل سلطة خارج الإنسان تفرض عليه قيمًا، وبذلك أضحت حرية الإنسان هى مصدر إلزاماته، وقد ذهب إلى هذا سيرين كيركيجارد (S.kingarel-١٨١٣-١٨٥٥م) وغيره من الوجوديين، وأكد عليه جان بول سارتر والذى يرى أنه لا إلزامات خارج الإنسان، فكما أن الفنان لا يلام إذا ما أغفل فى عمله الفني كل القواعد التى تواضع عليها سابقوه، فإنه فى مجال الأخلاق، فإن الذى يختار فعلًا ما من بين مجموعة من الأفعال الممكنة، دون أن يستجيب لقيم معتنقة تعارف عليها الآخرون، فإنه يعبر هنا عن حريته، ذلك لان كل فرد هو صاحب أفعاله وصانع مصيره.

ولا شك أن هذا الكلام يُعد مفيدًا على المستوى الداخلي - داخل الأوطان - على أن تكون الحرية هى الحرية المسئولة، وإلا تحولت إلى سفسطة وفوضى، لكن على المستوى الخارجى أى علاقة الأوطان بعضها بالبعض فالأمر يحتاج إلى مواثيق ومعاهدات تكفل الحرية والعدالة وعدم التعدى، كما ذهب كانط فى كتابه «مشروع للسلام الدائم»، - كما تقدم - فضلًا عن ضرورة اتخاذ مبدأ التعاون بين الدول لا مبدأ الصراع أساسًا للتعاون وذلك لمحاربة الفقر والجهل والمرض، وإذا كان ما تقدم يعد محاولة للغوص فى أعماق المذاهب المنطقية والفلسفية والابستمولوجية، مع ضرورة ألا قرار بأن بعض الدول والأمم قد نشأ وتطور على أساس من المذاهب الإبستمولوجية والفلسفية، ويُعد ما بها من أحوال اقتصادية واجتماعية وسياسية هى نتائج حتمية لما تعتنق من فلسفات، كعقلانية ديكارت لدى فرنسا، وماركسية الاتحاد السوفيتي (باشتراكيته)، وبراجماتية الولايات المتحدة الأمريكية، والتجريبية لدى بريطانيا، فإنه من الملاحظ أن أمم ودول الاعتداء - منذ الحروب الصليبية في العصور الوسطي والاستعمار فى القرنين التاسع عشر

والعشرين، (وينبغى أن لا تسمى بهذا الاسم فهو استخراب أو استيلاء أو احتلال) هى الأمم التى لا تأخذ معظمها بالمذاهب المثالية، لأن هذه المذاهب تؤمن بالفضائل والقيم، أما غيرها فلا ثوابت لديها، ولن تتغيرمواقفها مالم يتم اعتناق مثل هذه المذاهب التى تحض على الحرية والعدالة والمساواة، وعدم التعصب من أجل المنفعة وعلى ذلك تكون الحضارة الغربية ذات رسالة كالحضارة الإسلامية، ولا تكون حضارة مسيطرة كما هو الآن.

ثالثًا: رصد للواقع ومحاولة للخروج منه

لا أحد يستطيع أن ينكر كثرة المشكلات فى عالمنا المعاصر، هذه المشكلات تمثل أزمات، هذه الأزمات ترتبط ارتباطًا فلسفيًّا أي ارتباطًا فكريًّا، فضلًا عن أنه يعد ارتباطًا جغرافيًا واقتصاديًا، فالذى يحكم العالم هو لصراع على المنافع فضلا عن الصراع بين الأفكار، وقد يتبنى هذا الصراع الطرف الأقوى غالبًا، فى عالم تحكمه القوة من قطب واحد، وهذا القطب الواحد هو الولايات المتحدة الأمريكية التى تدير الصراع بطريقة براجماتية، فضلًا عن المحاولات البراجماتية للقضاء على منافسيها، وهذا ما حدث مع تفتيت الاتحاد السوفيتى السابق، والمحاولات المستمرة لإضعاف العالم الإسلامى للحصول على ثرواته، والعمل على الاحتلال تحت مسميات متعددة، كتصدير الديموقراطية وغيرها، مثل القضاء على أسلحة الدمار الشامل، وهذا ما حدث ويحدث فى العراق وأفغانستان، وما يحدث فى فلسطين، لكن الأمر يختلف مع كوريا الشمالية ومشروعها النووى، ومن ثم أصبح العالم تحكمه القوة فقط، أما عن كيفية الخروج من هذا الواقع، فالأمر يتطلب إحلال العدل مكان القوة، والتعاون مكان الصراع، والإعلاء من شأن الإنسان أينما يوجد.

وعلى الأمم أن تعمل بكل قوها بما فيه مقاطعة القطب الواحد لإحلال هذه القيم حتى تنتهى المشاكل، مع توحيد المعايير والموازيين لتكون ثابتة، مع ضرورة العمل على إصلاح هيئة الأمم المتحدة، وبإلغاء حق الفيتو Veto عند التصويت على القرارات، حتى

لا تُمارس أى ضغوط، فضلًا عن وجود آلية لتنفيذ ما يُتخذ من قرارات عادلة، وبمنطق ثابت، إن وضع قانون ذو مبادئ منطقية وقواعد أخلاقية عندما نصل إلى هذا الحد، ستنعدم المشكلات وسيحل السلام الدائم العادل الشامل الذى يعمل على مساعدة البشر جميعًا.

الخاتمة

على الرغم من التقدم الحضارى والتكنولوجى السائد الآن فى القرن الواحد والعشرين، إلا أن هذا التقدم قد صاحبه تأخر على المستوى الأخلاقى، ومغالطات على المستوى المنطقى، ذلك الذى يتمثل فى انعدام وجود معيار ثابت عقلانى يتفق عليه الغالبية العظمى، وذلك يكون بإيجاد الوسيلة لذلك، والتى تتمثل فى دستور حر وعادل بكل دولة، بما يكفل لها تحقيق الحرية والعدالة والمساواة فى الداخل، وهذا سيجلب السعادة للمواطنين داخل أوطانهم. ثم مبادىء عامة حرة وعادلة تنظم العلاقات بين الدول بعضها البعض، والحل فى العمل على نشر العقلانية المثالية، لتحل محل نظريات الغايات التى تبرر الوسائل، أما عن نتائج هدا البحث فإن المعيار الثابت هو الآجدي لمنطق الوطن، والأخلاق المثالية هى مبدأ المواطنة التى تكفل السعادة للجميع، وقد جاءت سياسات وأخلاقيات الدول كنتيجة لما تعتنق وتعمل به من فلسفات، ونظريات منطقية وإبستمولوجية، وإذا ما أريد تغيير النتائج فلا بد من تغير المقدمات، لكن كيف تشق الأمة العربية في حضارة هدفها الاستيلاء والسيطرة على الشعوب والحكام بادعاء وعملية تحضر الشعوب الجاهلة كما هو الحال في القرنين التاسع عشر والعشرين، أو تصدير الديمقراطيات والقضاء على أسلحة الدمار الشامل كما هو في القرن الواحد والعشرين، فما ذلك إلا بربرية غربية واستسلام عربي - لحضارة ليس لها رسالة.